ابن التلميذ الطبيب الشاعر

للاب لويس شيخو اليسوعي (تتمة)

﴿ طبُّهُ ﴾ ومما برَّز فيه ابن التلميذ صناعة الطبّ لا يختلف اثنان في الاقرار بطول باعهِ فيها . قال العماد الاصفهانيّ : «كان هبة الله هذا في العلم والعمل من الطبّ بقراط عصرهِ وجالينوس زمانهِ ختم به هذا العلم ولم يكن في الماضين من بلغ مداهُ في الطبّ عُمُر طويلًا وعاش نبيلًا جليلًا» . وقال جمال الدين القفطيّ (ص ٣٤٠) : ابن التلميذ طبيب وقتهِ وفاضل زمانهِ وعالم اوانهِ خدم الخلفاء من بني العبّاس وتقدَّم في خدمتهم وارتفعت مكانتهُ لديهم وكان موفَّقًا في المباشرة والمعالجة عالمًا بقوانين هذه الصناعة وصنَّف فيها عدَّة مصنَّفات وانتهت اليهِ رئاستُها وشهد لهُ ابن ابي اصيبعة قال (١ : ٢٥٩) : «كان اوحد زمانهِ في صناعة الطبّ وفي مباشرة اعمالها ويدلُّ على ذلك ما هو مشهور من تصانيفهِ وحواشيهِ على الكتب الطبيَّة وكثرة من رأيناهُ ممَّن قد شاهدهُ»

وقد روى معاصروهُ لهُ اعمالًا تدلُّ على فروسيَّتهِ وحسن نظرهِ . اخبر الشيخ موفَّق الدين البغداديّ قال : كان لامين الدولة حدوس صائبة منها انهُ أُحضرت اليهِ امرأة مجهولة لا يعرف اهلها أفي الحياة هي ام في الممات وكان الزمان شتاء فامر بتجريدها وصبّ الماء المبرَّد عليها صبًّا متتابعًا كثيرًا ثمَّ امر بنقلها الى مجلس دفيء قد بُخِّر بالعود والندّ ودُثِّرت باصناف الغراء ساعةً فعطست وتحرَّكت وقعدت وخرجت ماشية مع اهلها الى منزلها

(قال) ودخل اليهِ رجلٌ منزف يعرق دمًا في زمن الصيف فسأل تلاميذهُ وكانوا قدز حسين نفسًا فلم يعرفوا المرض فامرهُ ان يأكل خبز شعير مع باذنجان مشويّ ففعل ذلك ثلاثة ايَّام فبرئ . فسألهُ اصحابهُ عن العلَّة فقال : انَّ دمهُ قد رقّ ومسامَّهُ قد تفتَّحت وهذا الغذاء من شأنهِ تغليظ الدم وتكثيف المسامّ

قال ابن ابي اصيبعة (١ : ٢٦١) ومن نوادرهِ انَّ الخليفة كان فوَّض اليهِ رئاسة الطبّ ببغداد فاجتمع اليهِ سائر الاطبَّاء ليرى ما عند كل واحد منهم من هذه الصناعة . وكان في جملتهم شيخ لهُ هيئة ووقار وعندهُ سكينة فاكرمهُ امين الدولة وكان اذ ذاك

الشيخ دربةٌ ما بالمعالجة ولم يكن عندهُ من علم صناعة الطبّ الّا التظاهر بها . فلمّا انتهى الامر اليهِ قال لهُ امين الدولة : ما السبب في كون الشيخ لم يشارك الجماعة فيما يبحثون فيهِ حتى نعلم ما عندهُ . فقال : يا سيّدنا هل شيء مما تكلّموا فيهِ الّا وانا اعلمهُ وقد سبق الى فهمي اضمافُ ذلك مرّات كثيرةً . فقال لهُ امين الدولة : فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة . فقال الشيخ : يا سيّدنا اذا صار الانسان الى هذه السنّ ما يبقى يليق بهِ الّا ان يُسأل كم لهُ من التلاميذ ومن هو المتميّز فيهم . واما المشايخ الذين قرأتُ عليهم فقد ماتوا من زمان طويل . فقال لهُ امين الدولة : يا شيخ هذا شيء قد جرت العادة بهِ ولا يضرُّ ذكرهُ ومع هذا فما علينا أخبرني ايّ شيء قد قرأت من الكتب الطبيّة . وكان قصد امين الدولة ان يتحقّق ما عندهُ . فقال : سبحان الله العظيم صرنا الى حدّ ما يُسأل عنهُ الصبيان « ايّ شيء قد قرأتهُ من الكتب » لمثلي ما يقال الّا « ايّ شيء صنّفتهُ في صناعة الطبّ وكم لك فيها من الكتب والمقالات » ولا بُدَّ انّني اعرّفك بنفسي . ثمّ انهُ نهض الى امين الدولة ودنا منهُ وقعد عندهُ وقال لهُ فيما بينهما : يا سيدي اعلم انني قد شختُ وانا أرسم بهذه الصناعة وما عندي منها الّا معرفة اصطلاحات مشهورة في المداواة وعمري كلّهُ اتكسّب بها وعندي عائلة فأسألك بالله يا سيّدنا مسّ حالي ولا تفضحني بين هؤلاء الجماعة . فقال لهُ امين الدولة : على شريطة وهي انك لا تهجم على مريض بما لا تعلمهُ ولا تُشير بفصد ولا بدواء مُسهل الّا لما قرب من الامراض . فقال الشيخ : هذا مذهبي منذ كنتُ ما تعدّيت السكنجبين والجلّاب . ثم انّ امين الدولة قال لهُ معلنًا والجماعة تسمع : يا شيخ اعذرنا فانّنا ما كنّا نعرفك والآن فقد عرفناك استمرَّ فيما انت فيهِ ولا احد يعارضك . ثمّ انهُ عاد بعد ذلك فيما هو فيهِ مع الجماعة وقال لبعضهم : على من قرأت هذه الصناعة ؟ وشرع في امتحانهِ . فقال لهُ : يا سيّدنا انا من تلامذة هذا الشيخ الذي قد عرفتهُ وعليهِ كنتُ قد قرأت صناعة الطب . ففطن امين الدولة بما اراد من التعريض بقولهِ فتبسّم وامتحنهُ بعد ذلك

(قلتُ) وقد اخبر ابن العبري في تاريخ مختصر الدول (ص ٢٨١—٢٨٢) وابن القفطي في تاريخ الحكماء (ص ١٩١) خبرًا شبيهاً بهذا وقد نسباهُ الى سنان بن ثابت ابن قرّة والله اعلم

ومما اخبره ابن ابي اصيبعة (١: ٢٥٩) ويدلُّ على مروءة امين الدولة ودينه انَّ محمَّد بن محمود خوارزمشاه لمَّا حاصر بغداد مرض وهو بظاهر المدينة ومرض في الوقت ذاته المقتفي ببغداد وكان ابن التلميذ يعالجهما كليهما فاراد محمَّد خوارزمشاه ان يدبّر في اتلاف المقتفي وقدّم لهُ عشرة آلاف دينار فردَّها ابن التلميذ وقال: «انا رجل طبيب لا اتجاوز وظائف الاطبَّاء وما يلزمهم ولا اعرف الَّا ماء الشعير والتقوع وشراب البنفسج والنيلوفر ومتى خرجتُ عن هذا لا اعرف شيئاً». وهذا كان من عقل الرئيس امين الدولة ودينهِ وامانتهِ ثمَّ برئ محمَّد بن خوارزمشاه والمقتفي ووقع الصلح بينهما. وكان ابن التلميذ يقول: لا ينبغي للطبيب ان يداخل الملوك في اسرارهم ولا يتجاوز ماء الشعير والتقوع والشراب فمتى جاوز هذا تلف وكان سبب هلاكهِ وكان ينشد:

واذا أنبت المهيبُ للنصـــل جناحاً اطارها للتردّي
ولكل امرئ من الناس حدٌّ وهلاك الفتى جواز المدّ

﴿ تلامذتهُ وتآليفهُ ﴾ قد سبق في ما مرَّ أنَّهُ كان لابن التلميذ جماعة من الطلبة يدرسون عليهِ وقد بلغ عددهم نحو الخمسين. ومِمَّن اشتهر منهم محمَّد بن عبد السلام المارديني. قال جمال الدين القفطيّ (ص ٢٩٠): قرأ الطبّ على هبة الله ابن الصاعد بن التلميذ ببغداد وبلغني انَّ ابن التلميذ لمَّا رأى غزارة فهمهِ في علوم الحكمة اشار عليهِ بالطب لتعجيل الراحة منهُ وضرورة حاجة الناس اليهِ. وقال ابن ابي أصيبعة (١: ٣٠٠) انهُ قرأ كتاب القانون لابن سينا على ابن التلميذ وانَّ ابن التلميذ قرأ عليهِ صناعة المنطق وتوفّي سنة ٥٩٤ (١١٩٨ م) وعمرهُ ٨٢ سنة

ومن مشاهير تلامذة ابن التلميذ ايضاً صاعد بن هبة الله بن المؤمل الحظيريّ النصرانيّ واخوهُ ابو الخير الاركيذياقون وهما اخوا الجاثليق المعروف بابن المسيحي. حكى ابن العبري (ص ٤١٦) عن صاعد انَّ اباهُ حملهُ وهو متزعرع الى ابن التلميذ ليشغلهُ فقال: هذا ابنك صغير جداً. فقال: غرضي التبرُّك منك. فأقرأهُ المسألة الاولى من مسائل حنين. ثم اشتهر بالعلوم ومات ببغداد سنة ٥٩١ (١١٩٥ م)

ومِمَّن انتفعوا بالدرس على امين الدولة الشيخ موفَّق الدين البغدادي نقل ابن خلكان في ترجمة ابن التلميذ عنهُ قال: وكان امين الدولة شيخهُ قد انتفع وروى من كلامهِ ما نصُّهُ: «وكان شيخنا قد ناهز ثمانين سنة ولديهِ تجربة فاضلة وغوص

على اسرار الطبيعة يرى الامراض كأنها وراء زجاج لا يعتريه فيها ولا مداواتها شكٌّ وكان اكثر ما يصف المفردات او ما يقلّ تركيبهُ ولم أرَ من يستحقُّ الطبَّ غيرهُ »

امّا مصنَّفاتهُ فهي عديدة مليحة فمن ذلك اقراباذينهُ في عشرين باباً اشتهر وتداولهُ الناس ومنهُ نُسخ في خزائن المخطوطات الكبيرة كاكسفرد (ZDMG VIII, 378) والمكتبة الخديوية (٦ : ٣٥) . قال ابن خلكان : هو نافع في بابهِ وبهِ عمل اطبّاء هذا الزمان . ولهُ اقراباذين آخر موجز يعرف بالبيمارستان في ١٣ باباً . ومن تآليفهِ المقالة الامينيَّة في الادوية البيمارستانيَّة . واختيار كتاب الحاوي الرازي والاشربة لابن مسكويه واختصار شرح جالينوس لكتاب فصول بقراط ولكتاب تقدمة المعرفة لبقراط ثم لهُ شرح مسائل حنين على جهة التعليق ولهُ حواشٍ على قانون ابن سينا وحواشٍ على كتاب المائة للمسيحي ومقالة في الفصد ومختار من كتاب ابدال الادوية لجالينوس . وكتاب المجرَّبات منهُ نسخة في مكتبة غوتا . وقد مرَّ ذكر كتابهِ المشتمل على توقيعات ومراسلات

﴿ شعرهُ ﴾ وكما امتاز ابن التلميذ بالطبّ برَّز ايضاً في الشعر الّا انَّ ما بقي من نظمهِ عبارة عن اقوال وحكم ونتف ذات معانٍ بليغة لا يتجاوز اكثرها البيتين والثلثة . قال صاحب طبقات الاطبّاء (١ : ٥٩) : « لامين الدولة شعر مستظرف حسن المعاني الّا ان اكثر ما يوجد لهُ البيتان والثلثة واما القصائد فلم اجد لهُ منها الّا القليل » . وكذلك العماد الاصبهانيّ قد ذكرهُ في جملة شعراء عصرهِ في كتاب خريدة القصر قال : « هو جمال النصارى رأيتهُ ببغداد وكان من اكبر كتَّاب النصارى لهُ ابيات افراد كلُّها فرائد وكلمات وافية رائقة شائقة » . فمن حكمهِ قولهُ :

واظب على الجدّ ولا تتخدع بالهزلِ ان ساعدك الجدُّ
ولا تَقُل انَّ لهُ موضعاً فالهزلُ في موضعهِ جدُّ

ولهُ في نشاط الشيخ المسنّ :

اذا وجد الشيخُ في نفسهِ نشاطاً فذلك موتٌ خفي
ألستَ ترى انَّ ضوء السراج لهُ لهبٌ قبل ان ينطفي

ولهُ : سُقِ النفس بالعلم نحو الكمال تُوافِ السعادةَ من بابها
ولا ترجُ ما لم تُسبِّبْ لهُ فانَّ الامور بأسبابها

ومن جميل اقوالهِ :

لولا حجابٌ أمام النفس يمنعها عن الحقيقة فيما كان في الازلِ
لأدركتْ كلَّ شيءٍ مرَّ مطلبُهُ حتَّى الحقيقةَ في المعلولِ والعللِ

وقال في سكرة الشباب :

كانتْ بُلهْنيةُ الشبيبةِ سكرةً فصحوتُ واستأنفتُ سيرةَ مُجملِ
وقعدتُ ارتقبُ الفناءَ كراكبٍ عرف المَلَّ فبات دون المنزلِ

وله في الشيب :

قالوا شباب الفتى مخزونٌ والشيبُ وافٍ وليس برحلْ
فقلتُ ابدنْ قياساً ذاك حبيبٌ وذا موكلْ

وقال في العلم ومفعوله في اللبيب وفي المقل :

العلمُ للرجل اللبيب زيادةٌ ونقيصةٌ للاحمق الطيَّاشِ
مثل النهار يزيد ابصار الورى نوراً ويُعشي اعين الخفَّاشِ

ومن قوله في التواضع :

اذا كنتَ محمودًا فانك مُرشدٌ عيونَ الورى فاكحلهمُ بالتواضُعِ

وقال في العدوّ الصغير :

لا تحقرنَّ عدوًّا لانَ جانبُهُ ولو يكونُ قليلَ البطشِ والجلَدِ
فللذبابةِ في الجرح المُمِدِّ يدٌ تنالُ ما قصرتْ عنهُ يدُ الاسدِ

واحسن في من يرى عيوب غيره دون عيوب نفسه :

وارى عيوبَ العالمين ولا ارى عيباً لنفسي وهو مني اقربُ
كالطرف يستجلي الوجوهَ ووجهُهُ منهُ قريبٌ وهو عنهُ مغيبُ

وقال في تقلُّب الأيام :

أجدّك انَّ من شيم الليالي العسيفة ان تجور على اللبيفِ
كمثل الخلط اغلبُ ما تراهُ يصبُّ اذاهُ في العضو الضعيفِ

وقال في الكريم واللئيم :

نفسُ الكريم الجواد باقيةٌ فيهِ وان مسَّ جلدهُ الدَّنَفُ
والحرُّ حرٌّ وان ألمَّ بهِ الـ ـضرُّ ففيهِ العفافُ والانَفُ
والذلُّ لا يهتدي لمكرمةٍ لأنَّ ذاك المزاج منحرفُ
فالقَطْر سمٌّ ان احتواهُ فمُ الصـ ـلِّ ودرٌّ ان ضمَّهُ الصدفُ

﴿ الهجو ﴾ ولابن التلميذ هجو لطيف دون بذاءة ومجون فمن ذلك قولهُ يهجو ابنهُ سعيدًا :

حتى سعيدًا جوهرٌ ثابتٌ وحبُّهُ لي عرضٌ زائلُ

بي جهاتي الستُ مشغولةٌ وهو الى غيري بما سائلُ

ومنهُ: قد قالتُ للشيخ الجليـــل الاريبيّ ابي المظفّرْ
ذكّرْ فلان الدينَ بي قال المؤنّثُ لا يُذكّرْ

وقال في صديق لهُ يهوديّ يتكبّر:

لنا صديقٌ يهوديٌّ حماقتهُ اذا تكلّم بدو فيهِ من فيهِ
بيتهُ والكلبُ اعلى منهُ منزلةً كأنهُ بعدُ لم يخرج من التيهِ

وقال يهجو انسانًا بالعين:

مدوّر الكعب فاتخذهُ نقلَ عرسٍ ونقصَ عيشٍ (١
لو رمتْ عينهُ الغربالَ اخرجها في بنات نعشِ

ولهُ في آخر:

قالوا فلانٌ قد وزر فقلتُ كلّا لا وزرْ
واللهِ لو حُكّمتُ فيـــهِ جعلتهُ يرعى البقرْ

ومن هذا القبيل ما انشدهُ:

قال الانام وقـد رأو ـهُ مع المدائة قد تصدّرْ
من ذا المجاورُ قدرهُ قلتُ المقـدّم بالمؤخّرْ

ولهُ في آخر اسمهُ حيدر:

مذ صار حيدر بيدقَ الصدرِ ومشيرهُ في النحي والأمرِ
والمستناب على نيابتـهِ ايقنتُ انّ العجزَ في الصدرِ

وقال جدّهُ يحيى بن التلميذ في مغنٍّ:

لنا مغنٍّ ان شدا تدفقنا ثلوجهُ
فرتنا هزوجهُ (٢ وبعثنا خروجهُ

﴿ النكاهات واللطائف ﴾ ومن فكاهات امين الدولة قولهُ:

زجاجتين قطعتُ عمري وعليها عولتُ دهري
بزجاجة مُلئت بحبرٍ وزجاجةٍ مُلئت بخمرِ
فبذا أثبتُ حكمتي وبذا ازيل هموم صدري

ومثلهُ قولهُ:

كأسٌ بُطفي لَهَبَ الاوامِ ثانٍ يمينُ هاضم الطعـامِ
والسرور ثالثُ المدامِ والعقلُ يتبعهُ مزيدُ جامِ

---

١) ويروى: ونقصَ عرسٍ ٢) ويروى خرجه اي خروجهُ في الايقاع

ولهُ ايضاً : من كان يلبسُ كبهُ وشباً ويقنع لي ببلدي
فالكلب مني عندهُ خيرٌ وخيرٌ منهُ عندي

ولجدّه يحيى في هذا الباب قولهُ وكان سيف الدولة صدقة ابتنى لهُ داراً فوقعت فيها النار يوم الفراغ منها :

يا بانياً دار العُلى مأينها تزيدها شرفاً على كيوان
علمتْ بأنك انما شيّدتها للمجد والافضال والاحسان
فقفتْ موائدك الكرامَ وسابقتْ تستقبل الاضياف بالنيران

﴿ الاشواق ﴾ ولابن التلميذ ايضاً عدّة اقوال في الشوق والفراق والغزل الخالي من كلّ فحش نختارُ منها ما يلي :

تعس القياسُ فللغرام قضيّةٌ ليست على نهج الحجا تنقادُ
منها بقاء الشوق وهو سُرفنا غرَضٌ وتفنى دونهُ الاجسادُ

وقولهُ : يا من رماني عن قوس فرقتهِ بسهم هجرٍ غدا تلافيهِ (١
إرفق لمن غاب عنك غيبتهُ فذاك ذنبٌ عقابهُ فيهِ
لو لم ينلهُ من العذاب (٢ سوى بُعدك عنهُ لكان يكفيهِ

وقولهُ : يا من لبستُ عليهِ اثواب الضنا صُفرًا مشهّرةً بسُمر الادمعِ
أدرك بقيّة مهجةٍ لو لم تذُبْ شوقاً اليك تقيتها من اضلعي

وكتب لصاحب :

انت شغلي في كلّ حالٍ فنوى بخيالٍ ويقلقي باذكارِ
طال ليلي بطول هجرك لا دا م وشوقي الى الليالي القصارِ

ولهُ يتشوّق الى اصحابهِ وهو في بغداد :

على ساكني بغداد مني تحيّةٌ تحاكيها ريحُ الشمالِ اليمانيهِ
تخبّرهمُ اني صحبتُ معاشراً سواهم فأبكاني الزمانُ عليهمِ

وكتب لمن استطال زيارتهُ :

لا تظنّن تجنّبي لملالٍ انت من خوفِ سلوتي في امانيِ
ربَّ هجرٍ يكون ادعى الى الوصـ ـل ووصلٍ ادعى الى الهجرانِ

وقال في آخر :

يا دارُ لا تنكري منّي التفات فتى فراقُ احبابهِ اجرى مدامعهُ
عهدتُ فيكِ قُمَيراً كان يؤنسني حيناً فيناي تستقري مطالعهُ

١) ويروى : على تلافيهِ . ويروى : عدا تلافيهِ ٢) ويروى : العقاب

وفيه: خليلٌ نأى عني فبُدِّلتُ بعدهُ ... مقيمَ الهوى من صفو عيشٍ وطيبهِ
اغار عليهِ صرفُ دهرٍ فنالهُ ... وعمَّا قليل سوف يلحقني بهِ

ولهُ في احباب واحسن:

لا تعجبوا من حنين قلبي اليهم واعذروا غرامي
فالقوس مع كونها جماداً تئنُّ من فرقة السهامِ

وقال في غيرهم:

كم ألذُّ العيش في بلدةٍ ... سكّانُ قلبي غير سكانها
لو انَّها الجنَّة قد ازلفت ... لم أرضها الَّا برضوانها

ويروى لجدّهِ يحيى بن التلميذ ما يشبه هذه المعاني اللطيفة قال:

علق الفؤاد على خلوّ جسمهم ... علّقَ الذبالة في حشا المصباحِ
لا يستطاعُ الدهرَ فرقةُ بينهم ... الَّا لحين تفرّق الاشباحِ

وقال: نراقك عندي فراق الحياة ... فلا تحسبنَّ على مُدنفِ
علقتك كالنار في شدّها ... فما ان تفارق او تنطفي

ولهُ بمعناهُ: بدا لنا ارجُ القادمِ فبرَّد الذلَّة من هائمِ

﴿ المديح ﴾ مدح امين الدولة رجلاً شريفاً كان يتواضع فقال:

تواضعَ كالبدر استنار لناظرٍ ... على صفحات الماء وهو رقيعُ
ومن دونهُ يسمو الى المجد صاعداً ... سموَّ دخان النار وهو وضيعُ

ومدح الوزير سعد الملك نصير الدين من قصيدةٍ:

لا زال جدّكَ بالاقبال موصولا ... وجِدُّ ضدّك بالإذلال مقلولا
ولا عدمتَ من الرحمان موهبةً ... تُعيد ربك بالمامول مأمولا
فمثلُ منطلقُ الكفّين انت اذا ... اضحى اللئيمُ عن المعروف مبخولا
يجود بالمال لا تسأل بداهُ وان ... تسأل فصاحتهُ بذَّ الورى قيلا
لا يستريحُ الى العلّات معتذراً ... اذا الضنينُ رأى للبخل تأويلا
يبادرُ الجود سبقاً للسؤال يرى ... تعجيلهُ بعد بذل الوجه تأجيلا
لا غروَ أن كُسفت شمس الضحى وبدت ... فاكثر الناسُ تسبيحاً وتهليلا
فانت سيف غياث الدين أغمدهُ ... صوناً وعاد على الاعداء مسلولا
فلا خلا الدستُ من غيثٍ اذا قطروا ... ظلَّ نداهُ لدى الرُّواد مبذولا
فما يليق بغير السعد مسندهُ ... وان اعاروهُ إعظاماً وتبجيلا
فاسلم على الدهر في نعماء صافيةٍ ... من النوائب مرهوباً ومأمولا

ولهُ ايضاً ويروى البيتان لابن الحجّاج:

جودةً كالطبيب فيها يداوي سوء احوالها بحسن الصنيع
فهو كالموميا اذا انكسر العظـ ـمُ ومثلُ الترياق للمدوع

وله في جمال الرؤساء ابي الفتح هبة الله بن الفضل :

ما نثرُ انفاس الرياض مريضةً عوَّادُها طلّ الندى وقطارُ
كفلت بثروتها مؤيدةً جها وكفى سداها جدولٌ مدرارُ
بكت السماء فاضحكتها شكل ما ابكى فتضحك في الندى ثُوارُ
واذا تُعارضها ذكاء تشمشت فتازح النسـوّارُ والنوّارُ
مشت الصبا بفروعها عثالةً فشى المشوق وغيره استبارُ
واذا تغنّى الطيرُ في ارجائها ابدى بلابل صدره التذكارُ
يوماً باطيبَ من جوارك شاهدًا او غائبًا تدنو بك الاخبارُ

﴿ التهاني والهدايا ﴾ قال امين الدولة يهنّي في خلعة :

لئن شرفتْ مناسبُها وجلّت لقد زُفّت الى كفء شريف
الى من زانها وازانَ منها كسالفة المليحة والشنوف

واهدى الى الوزير ابن صدقة كتاب الحاضرات للراغب وكتب معهُ :

لمّا تعذّر ان اكونَ ملازمًا لجناب مولانا الوزير الصاحب
ورغبتُ في ذكري بحضرة بعده اذكرتهُ بمحاضرات الراغب

وكان ابو القاسم بن الفضل قد عتب على امين الدولة بن التلميذ فاجابهُ امين الدولة بان خلع عليه قميصاً معصفراً اسود وكتب اليه :

أحبك في السوداء تسحبُ ذيلها خطيباً ولكن لا بذكر مثالبي

ثم قال يشير الى كتابه :

اتاني كتابٌ لم يزدني بصيرةً بودّ بهديه اليَّ وقضلهِ
فقلتُ وقد اخجلني بابتدائهِ أبى الفضلُ الّا ان يكون لاهلهِ

﴿ الشكر ﴾ قال يشكر العزيز ابا النصر بن محمد بن حامد مستوفي الدولة

لعمرُ ابيك الخير ليس لواحدٌ من الناس الّا حامدًا لابن حامدِ
كأنهم دانوا الالهَ بشكرهم عُلاهُ ولكن لا كشكر ابن صاعدِ
هُمُ خبّروا عنهُ فأثنوا بصالحٍ وعندي بما اثنيتَ بهِ خيرُ شاهدِ (١

وقال يشكر موفّق الدين ابا طاهر الحسين بن محمد لوقفهِ دار كتبهِ على ساوة وكان ابن التلميذ دخل المدينة واشتغل في خزانة الكتب :

وُفّقتَ للخير اذ عمّمت بهِ طلّابهُ يا مُوفّق الدينِ

١) ويروى : وعندي بما اثنيتُ خير المشاهد

ازلفتَ للناس جنّةً حمتْ عيون فضل اشهى من العينِ
فيها غمار العقول دانيةٌ قطوفها حلوةُ الافانينِ
لا زلتَ تسمو بكل صالحةٍ عمدّي قدرةٍ وتمكينِ
ويرحمُ الله كلَّ مستمعٍ مشيّعٍ دعوتي بتأمينِ

﴿ المراثي ﴾ قال ابن التلميذ يرثي الامير سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس الاسدي لمّا قُتل :

ليلكِ انّ منصور عُفاةُ نوالهِ اذا عصفتْ بالريح نكباء حرجفُ
ويذكرهُ من ردّهم بسيوفهِ فتًى كان يلقاهم ببشرٍ ويسفُ
ولمّا سما فوق السماك بهمّةٍ (١ بدتْ لهما كالزنجُ الحسودِ ويُطرَفُ
ورشحُ الليالي بل رشتا بزُرْقهِ كبدر الدجا في ليلة التمّ يخسفُ
عليك سلامٌ لا تزالُ تلوبنا على حزنٍ ما هبّت الشيبُ (٢ توقفُ
ولا برحتْ عينُ السماء ببرّائها على جدثٍ واراك تهمي وتذرفُ

ومن مراثيهِ ايضاً قولهُ في رئيس مات في يوم ممطر :

كم ذا الوقوف على غرور اماني أأخذتَ من دنياك عقد اماني
هل عيشةٌ بعد الرضا مرضيّةٌ كلّا ولو كانت خلودَ جنانِ
انّ السماء بفقده لحزينةٌ فرياحُها تنسُ اكئيبِ الساني
والغيثُ ادمعها وما برقت بهِ نار الحوى والرعدُ للارنانِ (٣
لو ذاق فقدَك من يلوم على البكا لرأى على التنسيم (٤ والسلوانِ
تبكوك اذ صلّيا عليك ولم ترل كالنجم تخذجهم بكل مكانِ
لا يعدمنّك وما البيدُ بن ترى حيّاً ولكنّ البعيدَ الدانِ

﴿ الالغاز ﴾ ومما امتاز بهِ امين الدولة ابن التلميذ الغازٌ لطيفة قالها في مواضيع شتّى منها قولهُ في ابرة :

وكاسيةٍ عرياً سواها بعوزهِ وليس لها حدٌّ عليهِ ولا أجرُ
مفرّقةٌ للشمل والجمعُ دأبها وخادمةٌ للناس تخدمها عشرُ (٥
اذا خطرت جرّت فضول ذيولها سجيّةَ ذي كبرٍ وليس بها كبرُ
ترى الناس منها يلبسون الذي نفثت تسهّم جوداً ليس لها وفرُ
لها البيتُ بعد العزّ غير مدافع الى بأسهِ (٦ تُعزى المهنّدةُ البُترُ
اضرّ بها مثلي فحولٌ بجسمها وان لم يرُعها مثل ما راعني هجرُ (٧

١) ويروى : رقا وسما فوق السماء بهمّةٍ ٢) ويروى : الثبت ٣) ويروى : للاحزان
٤) ويروى : على التبسيم ٥) ويروى : ويخدمها . يريد بالعشر الاصابع العشر
٦) ويروى : الى بابهِ ٧) ويروى : بحر

وكان يحيى ابن التلميذ جدّهُ سبقهُ الى لغز في الابرة واجاد وقال :

وفاقرةٍ فُتَّ في الرجل منها ولكن لا تسيغ بهِ طعاما
وخطفة الحشا في الرأس منها لسانٌ لا تطيق بهِ الكلاما
تصولُ بشوكةٍ تبدو وسمرٍ وما مَن ذاقهُ يردُ الماما
تجرُّ وراءها ابدًا أسيرًا كما قادت يدُ الهادي الزماما
نحيفًا ذا قوى لكن تراهُ تقبضها ذليلًا مستقاما
فتلفيهِ بحبها مقيمًا طوال الدهر لا يأبى المقاما
ايا عجبًا لها سوداء خلقًا تريك خلائقًا بيضًا كراما
غدت عريانةً من كلّ لبسٍ وفاضلُ ذيلها يكسو الانامـا

وله في قوس :

وما ذو قامةٍ ذات اعوجاجٍ تنئُّ وتنحني عند الهياجِ
لها المكر الخفيّ مع التلاقي كسكر الراح في قدح الزجاجِ

ولامين الدولة لغزٌ في الدرع (ويروى : الذراع) :

وبيضاء لا للبيض والسمر قدّها تظاهر في تقويمها الحرُّ والبردُ
تجلّت لنا حبًّا ولم تخبر في رحا ولكن مولاة (١ لها الدقّ والبردُ
وقيتُ بها نفسي فكانت كأنها هي الشمسُ محجوبًا بها الكوكبُ الفردُ

وقال لغزًا في الظلّ :

وشيء من الاجسام غير مجسَّمٍ لهُ حركاتٌ تارةً وسكونُ
يتمُّ اوانيَ كونهِ وفسادهِ وفي وقت محياهُ الحماقُ يكونُ
اذا بانت الانوارُ بان لناظرٍ واما اذا باتت (٢ فليس يبينُ

وقال في السحاب :

وهاجمٍ ليس لهُ من عدوى مستبدلٍ بكل شوًى شوى
بكاؤهُ وضحكهُ في معًى اذا بكى اضحك اهل الدنيا

واشتهر لغزهُ في الميزان :

ما واحدٌ مختلفُ الاسماء (٣ يعدلُ في الارض وفي السماء
يحكمُ بالقسط بلا رياء اعمى يُري الارشاد (٤ كل راءِ

١) ويروى : تولاهُ ٢) ويروى : غابت

٣) ويروى : مختلف الاهواء قال ابن خلكان : قولهُ مختلف الاسماء يعني ميزان الشمس وهو الاسطرلاب وسائر آلات الرصد وهو معنى قولهِ في الارض وفي السماء . وميزان الكلام النحو وميزان الشعر العروض وميزان المعاني المنطق وهذه الميزان والمكيال والذراع وغير ذلك

٤) ويروى : الرشاد

اخرسُ لا من علَّة وداء بُغني عن التصريح بالايماء
يحيب ان ناداهُ ذو امتراء بالرفع والخفض عن النداء
يفصح ان عُلّق في الهواء

ولهُ في حصير :

افرشتُ خدّي للضيوف ولم يزل خلقي التواضعُ للّبيب الآكيس
فتواضعي اعلى مكاني بينهم طوراً تصيرُ اجلُّ صدر المجلس

وقال في مجمرة البخور :

اذا الهجرُ اضرم نار الهوى فقابَ يضرم بالوصل (١ نارا
ابوح بأسراري المضمرا تِ تبدو سراراً وتبدو جهارا
اذا ما طوى خبري صاحبٌ أبى طيبُ عرفيَ الّا انتشارا

وقال فيها : كلّ نار للشوق تُضرَمُ بالهجـــر وناري تشبُّ عند الوصالِ
فاذا الصدُّ داعني سكن الوجـــدُ ولم يخطر الغرامُ ببـالي

﴿ مراسلاتهُ ﴾ كان ابن التلميذ لادبه وحسن مزاياهُ ممدَّحاً يقصدهُ الادباء ويراسلهُ الشعراء . وممَّن جرت لهُ معهم مكاتبات الرئيس جمال الملك ابو القاسم علي بن افلح . كتب لهُ ابو القاسم وقد نقه من مرض كتاباً يستأذنهُ في الأكل :

انا جوعان فأنتظِرْ فيَّ من هذه الجماعه
فرّجي في كسرة الخبـــز ولو كانت قطاعه
لا تَقُلْ لي ساعةً تصـــبرُ مالي صبرُ ساعه
فحواي اليوم ما يقـــبلُ في الخبز شفاعه

فاجابهُ امين الدولة :

هكذا اضيافُ مثلي يتشكَّون الجاعه
غير اني ليس عندي لمضرٍّ من شفاعه
فتمهَّـــلْ بسَويقٍ فهو خيرٌ من قطاعه
بحياتي قل كما تر ـــسمهُ سمعاً وطاعه

فلمَّا وصلت الابيات الى ابن الافلح كتب اليهِ الجواب :

انَّ مرسومك عنـــدي قد توخَّيتُ استماعه
غير اني لم اقل من نبّني سمعاً وطاعـــه
ودفعتُ الجـوع واللـــه فلم اسطع دفاعه
فاكفني كُلفتهُ الآ نَ وجنّبني صداعه

(١ ويروى : للهجر

فكتب اليه ابن التلميذ :

انا في الشعر ضيفُ السطيح .تروقُ البضاعه
ولك الخاطر قد أُو تيَ طبعاً وصناعه
ومتى لم تُكفَ شرَّ السجوع لم تُكفَ صداعَه
فعلى اسم الله فقدِّم اخذهُ من بعد ساعه

وكتب اليه ابن افلح يتشوَّق اليه :

اني وحبّك منذ ارتحلتَ عاري حنينٌ وليلي انينُ
وما كنتُ اعرف قبلي امرءًا بجسم يقيمُ وقلب يبينُ
يقول الخليُّ اذا ما رأى ولوعي بذكراك لا يستكينُ
تسلَّ فقلتُ دهاك الفراقُ أتدري جوى البين أنّى يكونُ
وكيف السبيلُ الى سلوتي وحزني وفيٌّ وصبري خؤونُ

فكتب اليه امين الدولة يجيبهُ :

واني وحبّك منذ بنتُ عنك قلبي حزينٌ ودمعي هتونُ
واخلف ظنيَ صبرٌ معينٌ وشاهد شكواي دمعٌ معينُ
فلله ايامنا الخاليا ت لو ردَّ سالف دهرٍ حنينُ
واني لأرعى عهود الصفاء ويكلأها لك ودٌّ مصونُ
وأحفظ ودَّك عن قادحٍ وردُّ الاكارم حقٌّ ثمينُ
ولم لا يكونُ ونحن البدا نِ انت بفضلك منها اليمينُ
اذا قلتُ اسلوك قال الفرا مُ هيهات ذلك ما لا يكونُ
وهل ليَ في سلوةٍ مطمعٌ وصبري خؤونٌ وودي امينُ

وكتب الى ابن الافلح ايضاً يقول لهُ :

اسأتَ بنفسي حين ازمتَ رحلةً فهتي مجموعٌ بشملي المفرَّقِ
فانَّ امرءًا سرَّ الموفَّق قربهُ وفارقهُ طوعاً لغيرُ موفَّقِ

ومن مراسلي ابن التلميذ محمد بن الهبّاريّة العباسي ناظم كتاب كليلة ودمنة وابو اسمعيل الطغراني الشاعر الشهير ومحمد بن جكينا والسيّد النقيب انكامل ابن الشريف الجليلي وكلهم قصائد امتدحوا بها امين الدولة ابن التلميذ نقتصر بذكر ابيات منها . قال ابن الهبّاريّة من قصيدة :

يا بني التلميذ لو وافيتُكم لم تكن تنسى باهلي شغفهْ
وتسلّيتُ بكم عن صبيتي وغدا وسطي ثقيل المنصفهْ
انّهُ طلّقتُ كرمانَ بكم انكم لي عوضٌ ما اشرفهْ
برئيس الحكماء المرتجى انهُ لي جنّة عترفهْ

غدت الدنيا ومن فيها مناً لملاهُ بالذي يعترفهُ
شمس مجدٍ لا تراها ابداً عن سماوات العلى تكشفهُ

وهي طويلة . وكتب ابو اسمعيل الطغرائي اليهِ يشكو ظهورهُ :

يا سيّدي والذي مودّتهُ عندي روحٌ بحيا بها الجسدُ
من الم الظهر أستغيث وهل يألم ظهرٌ اليك يستندُ

ومن مديح للسيّد النقيب :

ودعني والثناء على مُعزّ عرفتُ بهِ صلاحي من فسادي
على متوحّد في الفضل سامٍ الى امد العلى متباعد الابادي
اخي حكمٍ شواهدها عليهِ بوادٍ في الحواضر والبوادي
اذا ما قيس قصّر عنهُ قسٌّ وقسٌّ ما علمنا من اياد

وقال في ختامها :

جُزيتَ الصالحات فانتَ اهلٌ لها وسُقيت انواء الغوادي
ودمتَ على الزمان وكلّ شيءٍ على سرّ الزمان الى تنادِ

ولابن التلميذ اخبار كثيرة اقتصرنا على ما سبق لئلّا نخرج الى الطول الممل ولا نعلم أُجمع شعرهُ في ديوان مستقلّ . وقد ذكرهُ صاحب كتاب اخبار الملوك ونزهة المالك والمسالك في طبقات الشعراء (نسخة ليدن ص ٤٢٧) واثنى على نظمهِ وقال انّ شعرهُ كثير المُلَح . وما لا يُنكَر ان لجدّهِ يحيى بن التلميذ ديوانًا اخذتهُ يدُ الضياع . ومدّن رثى امين الدولة اثير الدين ابو جعفر عبد الله بن عبيد الدين فقال :

فُقد الطيبُ فليس توجَدُ صحّةٌ الموجودِ شأ بعد ذا المفقودِ

وافاد ابن ابي اصيبعة (١ : ٢٦٢) انّ الدار التي كان يسكنها ابن التلميذ « كانت في سوق العطر ممّا يلي بابهُ المجاور لباب الغربة من دار الخلافة المظلّة بالشرعة النازلة الى شاطئ دجلة » . انتهى

وصف طور سينا وابنيتهِ

سعى بنشرهِ الاب لويس شيخو اليسوعي (تتمة)

[ثم تمشي من اول كنيسة الضامنة قليلًا فتلقى باب عقد وايضًا بابًا آخر مثلهُ ثم تمشي قليلًا في سهل فتلقى اربع كنائس جملةً والكنيسة على اسم مار الياس الحي وداخل